فشل المثقفين الأوروبيين

تصدّع الثقة بالهوية

يان فيرنر مولر Jan ـWerner Muller [*]

يُتهَم المثقفون الأوروبيون بالفشل في إعادة ثقة أوروبا بنفسها. ومثل هذه التهمة جاءت ـ كما سيتبيّن لنا ـ إثر الاهتزاز الذي عصف بها نتيجة الأزمات المتعاقبة. وكما يبيّن يان فيرنر مولر فإن الدعوات إلى إضفاء طابع الشرعية على ما تقوله أوروبا ـ بالإضافة إلى الحنين إلى عصر أوروبا الذهبي ـ يظلان ملتزمين بمنطق بناء الأمم الذي كان سائداً في القرن التاسع عشر. ماذا يجب أن يفعل المثقفون الأوروبيون إذن؟ المقالة التالية للباحث يان فيرنر مولر تلقي الضوء على هذا التساؤل الإشكالي وتقارب القضية بوجهيها النظري والتطبيقي في ضوء التطورات التي طرأت على المجتمعات الأوروبية حيث ضعفت الى حد لافت القيم التي بواسطتها تستعاد الثقة بالذات الحضارية لأوروبا.

«المحرر»

قرب نهاية العام الماضي، وفي حين كانت أزمة «منطقة اليورو» (اليوروزون) تتجه إلى ذروة جديدة، نبه عدد من الصحافيين في وسائل الإعلام الراقية في ألمانيا إلى جانب من الأزمة لم يلق إلا انتباهاً ضئيلاً حتى الآن: إن أزمة اليورو ليست مجرد مؤشر على فشل المصرفيين المركزيين في أوروبا أو البيروقراطيين اليونان أو الإيطاليين الذين لا يدفعون ضرائبهم أو حتى آنجيلا ميركل (كل ذلك يعتمد على الزاوية التي ينظر بها أحدنا إلى الموضوع)، بل أزمة اليورو تشير إلى فشل شامل من قبل المثقفين الأوروبيين، لماذا لا يدافع هؤلاء المثقفون عن الإنجازات العظيمة التي حققها التكامل الأوروبي؟ لماذا لا

---

*ـ أستاذ العلوم السياسية في جامعة برنستون ـ أميركا، مؤسس بالشراكة للمعهد الأوروبي للفنون الليبرالية ببرلين ـ ألمانيا (ECLA).

ـ ترجمة: رامي طوقان.

ـ نقلاً عن مجلة **Eurozine** ـ www.Eurozine.com ـ 11ـ4ـ2012.

يتقدمون برؤى جذابة عن مستقبل القارة الأوروبية بدلاً من تضييع إرث عظيم من الثقة والتفاهم المتبادلين بين الأوروبيين غذتهما عقود طويلة من السلام والاستقرار؟ هل كانوا نائمين خلال أزمة قد تؤدي آخر الأمر إلى عودة النزعات القومية البشعة أو حتى الصراع العسكري المباشر الذي لا يفتأ بعض رجال الدولة المخضرمين في أوروبا مثل هيلموت كول من التحذير منه؟

نشأت فكرة «فشل» المثقفين الواضح المعالم أو حتى «الخيانة» من قبلهم في القرن العشرين، وهو القرن الذي ينظر إليه على العموم على أنه «قرن الأيديولوجيات» حيث لم تكن الأفكار هامة على صعيد عقلاني تجريدي غامض وحسب بل يمكن ترجمة الأفكار فوراً إلى سياسات وقد تتحول هذه بدورها إلى قوى مدمرة. دعونا فقط نفكر في ما الملاحظة الشهيرة التي أبداها الشاعر البولندي تشيسلاف ميلوش عن أوروبا في منتصف القرن العشرين: «إنّ سكان الكثير من البلدان الأوروبية اكتشفوا واقعاً كريهاً هو أن مصائرهم قد تتأثر بشكل مباشر بكتب فلسفية معقدة ومبهمة». لقد لعب المثقفون في الماضي أدوراهم في مسرح التاريخ العالمي مشاركين في دراما المعارك الدموية التي جرت بين الديموقراطية الليبرالية والفاشية والشيوعية السوفييتية.

إذا تذكرنا هذا الدور فما هي مكونات «الفشل»؟ هل هي عدم قول الأسطر التي تفرضها أيّ أيديولوجية مثقف عليه بشكل صحيح؟ في عام 1927 اتهم كاتب المقالات والفيلسوف الأخلاقي الفرنسي جوليان بندا زملاءَه الكتاب والفلاسفة بأنهم خانوا رسالتهم من خلال الدعوة إلى مواقف قومية. كانت حجته أن المثقفين الحقيقيين يأخذون جانب الحقيقة الشمولية المنزهة عن تغير الأزمنة، جاعلين منها مركز القوة بدلاً من التحدث عن المصالح القومية الضيقة. لكن المثقفين المدافعين عن المثل الشمولية والشيوعية اتهموا بالخيانة أيضاً، والسبب الرئيسي لهذا الاتهام أنهم صدقوا أكاذيب ستالين وأعموا أبصارهم عن أوجه القصور في الاتحاد السوفييتي والتي تزايد وضوحها يوماً بعد يوم.

«لغة الفشل»

قد يبدو لنا مفهوم «لغة الفشل» هذا غريباً، فالمثقفون ليسوا طلاب مدارس سقطوا في امتحاناتهم التي أصلحها لهم مثقفون آخرون ولا هم مقيدون بالقيم العملية التي تحكم تصرفات وآراء المهنيين المحترفين، ولكن هذا لا يعني أن المثقفين لا يمكن أن

يرتكبوا أخطاء جوهرية إذا ما حكمنا على آرائهم من منظار مجموعة القيم الديموقراطية الليبرالية، قد يتحول هؤلاء المثقفون أنفسهم إلى قوميين مسعورين أو قد يتغاضون عن تصاعد النزعات القومية من خلال عدم رفع أصواتهم ضدها. قد يفشلون أيضاً من خلال غض أبصارهم عما الظلم الواقع حاليّاً بإسم التقشف والاستقامة المالية.

علينا فقط أن نفكر في الأمثلة البديهية: اليونان وألمانيا، رغم أن العلاقات تظل «حضارية» بين البلدين على المستوى السياسي الأعلى لكن على مستوى المجتمعات المدنية فيهما فإن العلاقات تبدوا أقل تحضراً. في ساحة سينتاغما، الساحة الرئيسية في أثينا، حمل المتظاهرون لافتات ساوت بين النظام الجديد الذي فرضه الاتحاد الأوروبي ومعسكر داشاو النازي كما يوجد حزب سياسي يوناني الآن يتمركز كل شيء فيه ما عدا إسمه على معاداة الألمان (حزب «اليونانيين المستقلين» الذي وعد بالمقاومة ضد ما أسماه بالرايخ الرابع، مشيراً كل ما تسمح الفرصة بذلك إلى الاحتلال الألماني خلال أربعينات القرن العشرين). بينما في ألمانيا ورغم أنه لا يوجد أي أدبيات أو إشارات رمزية حتى تحاول مساواة الماضي بالحاضر (ولأسباب بديهية...) لكن هناك الكثير من الشكاوى عن «الجنوبيين الكسالى» ومما يزيد الطين بلة المحتوى غير المسؤول الذي تنشره بعض الصحف الشعبية.

لكن المطالبين بحضور أكبر للمثقفين الأوروبيين يريدون أكثر من مجرد أصوات منطقية تقف في وجه النزعات القومية، فهم يطالبون برؤى عظيمة وقصص أعظم ولا توجد قلة من هذه الأمور في الماضي الأوروبي، لقد عد المؤرخون ما لا يقل عن 182 خطة عظيمة لتوحيد أوروبا في الفترة الممتدة بين عامي 1306 و1945 (ويشمل ذلك بعض المشاهير مثل قس سان بيير وبالطبع كودنه وفهكاليرغي الذين رسموا مخططات متميزة في هذا المجال)، ولكن رغم وجود الكثير من الاجتماعات الثقافية العالية المستوى في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية والمخصصة لفكرة الوحدة الأوروبية أو «أزمة الحضارة الأوروبية» المفترضة (وفي الواقع لقد حضر جوليان بندا بعض هذه الاجتماعات) لكن من الصعب أن نقول: إنّ فترة الخمسينات والستينات في القرن العشرين كانت عصراً ذهبيّاً للنقاش الثقافي عن أوروبا.

قد نفكر في بعض الاستثناءات وخاصة هؤلاء المثاليون الذين برزوا من حركات المقاومة المختلفة ليدعوا إلى فيدرالية أوروبية ديموقراطية، أعني أشخاصاً مثل والتر

ديركس وألتييرو سبينيلي. ولكن الالتزام الفكري كان له مواضيع أخرى أكثر إلحاحاً من أوروبا في ذلك الوقت مثل الحرب الباردة وزوال القوى الاستعمارية، لم تكن أوروبا عندها تبدو كأكثر من لعبة بيد القوى العظمى أصلاً. في الواقع كان المفهوم العام أنه عندما تجد أوروبا موقفاً مناسباً بالنسبة للقضايا الأخلاقية الكبرى وحين يزول تلوث أوروبا نفسها بالنزعات الاستعمارية والرأسمالية فعندها فقط يمكن للمثقفين التكلم عن تكامل أوروبي من هذا القبيل. كان عالم الاجتماع الفرنسي إدغار موران على سبيل المثال واحداً من الكثيرين من المثقفين اليساريين الذين اعتبروا أن مصطلح «أوروبا» نفسه ظل ملوثاً بشرور الاستعمار، لم يبدأ اليسار في أوروبا بدعم فكرة الوحدة في القارة إلا بعد زوال القوى الاستعمارية في ستينات القرن العشرين.

بالرغم من ذلك تظل المشكلة العامة قائمة: لقد تقدم التكامل الأوروبي في ظل غياب لأي رؤية ثقافية واسعة. في الواقع سيركز أي كتاب مدرسي جيد عن الاتحاد الأوروبي أن الفكرة كلها كانت قائمة على التكامل من خلال خطوات صغيرة أو إذا شئنا صياغة الفكرة بشكل أقل تهذيباً ـ التكامل في الخفاء. ربما كان عند مؤسسي الفكرة ـ وخاصة جان مونيه ـ أهدافاً أخلاقية عالية ولكن المشروع نفسه تقدم على أساس الضرورات التكنوقراطية وليس لأن الأوروبيين رأوا المزيد من القيمة الأخلاقية في بناء مجتمع سياسي متكامل على المستوى الأوروبي.

في أعين الكثير من المراقبين كانت هذه بالضبط هي المشكلة، كثيراً ما يشير هؤلاء الذين يرون أن الشيء الأساسي الذي ينقص الإتحاد الأوروبي هو افتقاده للمعنى والقدرة على أن يلهم «الولاء» أو حتى مجرد «الحماسة» إلى الجملة المنسوبة بطريق الخطأ إلى مونيه التي يفترض أنه قال فيها أنه كان عليه أن يبدأ بالثقافة قبل أي شيء آخر. يقول هؤلاء أن على المثقفين أن يلحقوا قطار هذا المشروع الذي نفذ دون الرجوع إليهم والذي يحتاج إليهم بشدة الآن حتى يصوغوا أسباباً وجيهة حتى يتقدم بشكل أكبر (وأيضاً يستحسن أن يقوم هؤلاء المثقفون باختراع رواية رائعة تبرر ماضي ذلك المشروع وحاضره ومستقبله في آن واحد).

لكن هذه مجرد طريقة أخرى للقول بأن على المثقفين أن يشتغلوا بنفس الدور الكلاسيكي الذي كانوا يمارسونه في القرن التاسع عشر: أن على الكتاب والمؤرخين

على وجه الخصوص أن يضفوا صبغة شرعية على وحدة وطنية (أو في هذه الحالة على وحدة تتجاوز الأمم) من خلال قصص قوية وتعريف «القيم الأوروبية» وفي الحال الأمثل تحويل هذه القيم إلى بنود واضحة المعالم ربما حتى في شكل «الرواية الأوروبية الكبرى». هذا بالطبع مجرد صورة هزلية عن الواقع فلا ينتمي كل شخص يكتب كتاباً عن تاريخ أوروبا أو يتصور متحفاً أوروبيّاً موحداً إلى قطاع «بناء الأمم» ولا توجد عن الكثير منهم الرغبة في أن يروي رواية تبرر شرعية أسياد اللجنة الأوروبية في بيرليمونت، في الواقع يظل من المطلوب والمنطقي أن يستكشف المؤرخون من مختلف الدول وجهات نظر المؤرخين الآخرين ويختبروا لأي مدى يمكن لوجهات النظر المختلفة هذه أن تتكامل، ولكن المطالب بقصة أوروبية كبرى لا تزال مخلصة لمنطق بناء الدول الأوروبية في القرن التاسع عشر. كثيراً ما يقال وبشكل واضح وصريح أنه لا يمكن التشكيك في القيمة العظيمة المزمع إعطائها لهذه القصة ـ فقط فكروا في الدعوات إلى اعتبار محرقة الهولوكوست على أنها «أسطورة تأسيس» أوروبا مع أن هذا من الناحية التاريخية هو محض هراء. دعنا نؤكد أن الأمر ليس تكراراً لتجربة الثورة الفرنسية حين تحول الفلاحون إلى مواطنين فرنسيين من خلال الخدمة العسكرية ومدارس الليسيه الجمهورية، إنّ الفكرة الكامنة، لكن الموجودة بوضوح في هذه المطالب، هي أن المجتمعات السياسية بحاجة إلى قصة مشتركة تؤسس لتكاملها، وإذا ما أردنا صياغة هذه الفكرة بوضوح صارخ فإن نزعة «الما فوق القومية» لا تزال في أساسها نزعة قومية. إن أمة إسمها أوروبا لا تزال في الواقع أمة، وإذا كان هناك أمر مشكل في النزعات القومية ـ ومن الواضح أنه في عين بندا وجميع من اعتمدوا القالب العام الذي عرفه لدور المثقف فإن هذا الأمر المشكل موجود بوضوح ـ فعلى المثقفين أن يبتعدوا عن أعمال إختراع الرؤى العظيمة وصناعة القصص الكبيرة شبه القومية.

ثقافة نقد الأحوال

ولكن.. لماذا وببساطة لا نعتمد نموذج بندا ولكن في سياق أوروبي؟ لماذا لا نجعل مهمة المثقفين الأساسية هي كشف حالات الظلم وقذف مقالات الاتهام النابعة من القلب على من يستحقها وقول الحقيقة إلى السلطة القابعة في بروكسل؟ المشكلة هنا هي التالية: ليس من الواضح أبداً لماذا يجب أن تكون أوروبا ـ وبشكل أكثر تحديداً: الإتحاد الأوروبي ـ هي الإطار المرتبط بالأسئلة الأخلاقية هذه. دعونا نفكر في اللامساواة

عـلى الصعيديـن الاجتماعـي والاقتصـادي وهـي بـدون شـك موجـودة في أوروبـا، ولكـن حـالات اللامسـاواة داخـل أوروبـا سرعـان مـا تتضـاءل إلى التفاهـة الأخلاقيـة حـين نقارنهـا مـع حـالات اللامسـاواة عـلى الصعيـد العالمـي. اللامسـاواة العالميـة هي سلسـلة مـن الفضائح اليوميـة بينـما الفروقـات في الدخـل داخـل أوروبـا قـد تسـتحق بعـض الدراسـة مـن علـماء الاجتـماع وربمـا تكـون سـبباً لبعـض الاحتجاجـات الاجتماعيـة ولكنهـا وببسـاطة لا تشـكل سـبباً للكثـير مـن الشـعور بالغضـب الأخلاقـي.

قـد يعـترض البعـض ويتسـاءل: مـاذا عـن «العجـز الديموقراطـي» الـذي كثـيراً مـا يشـتكى منـه في المؤسسـات الأوروبيـة؟ هنـا نحـن نقـترب مـمّا يبـدو بالنسـبة لي أنـه دور مناسـب ـ وإن كان متواضعـاً ـ للمثقـف الأوربي اليـوم، مـن الأسـماء الشـهيرة التـي أطلقـت عـلى الاتحـاد الأوروبي ـ مـن قبـل رئيـس لجنـة الإتحـاد نفسـه شـخصيّاً ـ هـي أنـه «جسـم سـياسي مجهـول» (unidentified political object)، وإذا لم يتمكـن جـاك ديلـور مـن التعـرف عـلى هـذا «الجسـم السـياسي» فمـن يمكنـه فعـل ذلـك إذن؟ إذا صغنـا الفكـرة بدرجـة أكـبر مـن التعاطـف فـإن الاتحـاد الأوروبي هـو أهـم إبـداع مؤسسـاتي منـذ اختـراع الدولـة الديموقراطيـة الحديثـة القائمـة عـلى الرعايـة الاجتماعيـة ولكنـه مـن الصعـب حقّـاً أن نتعقـل معنـاه ونفهـم طريقـة عملـه الواقعيـة، يصعـب فـك شـبكة العلاقـات المعقـدة القائمـة بـين الـدول الأوروبيـة المختلفـة ولجنـة الاتحـاد الأوروبي في بروكسـل حتـى بالنسـبة لأذكى المطلعـين عـلى خفايـا لعبـة السياسـة الأوروبيـة، كـما أن الإجابـة عـن الأسـئلة عـن مـدى شرعيـة هـذا الاتحـاد وكيـف يمكـن لهـذه الشرعيـة أن تمـد جذورهـا في الحيـاة اليوميـة للأوروبيـين أصعب وأصعـب. يمكن للمثقفـين هنـا أن يلعبـوا دوراً بديهيّـاً وهـو مـا أسـميه «دور الموضحـين»: يمكـن للمثقفـين هنـا أن يحملـوا عـلى عواتقهـم مسـؤولية توضيـح فكـرة أوروبـا لمسـتمعيهم وتأديـة دور آخـر في غايـة الأهميـة هـو توضيـح الخيـارات المعياريـة لتطـور الاتحـاد الأوروبي كـما نعرفـه اليـوم وربمـا صنـع نظـام حكـم مـن نـوع آخـر (مثـل ديموقراطيـة فـوق أمميـة بـكل معنـى الكلمـة مقارنـة مـع الوضـع الحـالي حيـث تسـتمد شرعيـة الإتحـاد الأوروبي في نهايـة المطـاف مـن القوانـين التـي تقرهـا البرلمانـات الأمميـة المحليـة).

قـد يجـد البعـض هـذه الرؤيـة لمـا يمكـن للمثقفـين أن يفعلـوه وكأنهـا مفرغـة تمامـاً مـن أي معنـى، ألا ينبغـي عـلى المثقفـين أن يسـعوا إلى فعـل أكـثر مـن مجـرد مـا يفعلـه مـن يطلـق عليهـم الأمريكيـون الاسـم المربـك: «المثقفـون العامُّـون»؟ (بـأنّ الذيـن يشـير إليـه الأمريكيون

بهذه التسمية هم ببساطة أكاديميون قادرون على شرح وتوضيح شيء ما لجمهور متعلم، أي بكلمات أخرى: خبراء). ليس تماماً: النقطة هنا أن المثقفين الذين سيلعبون الدور الذي أتصوره هنا لا يجب أن يكتفوا بمجرد لعب الدور الذي يطلق عليه الفرنسيون مصطلحاً رائعا هو: «vulgarisation» (الذي قد يترجم: التعميم أو الابتذال)، بل عليهم أيضاً أن يزنوا الخيارات المعيارية هذه ولكن بطريقة يتمكن فيها المواطنون الأوروبيون من التوصل إلى أحكامهم الأخلاقية والسياسية الخاصة عما يجب فعله بهذا «الجسم السياسي المجهول». بكلمات أخرى: إن التوضيح والتبرير العام يجب أن يحصلا سوية وهذا دور ديموقراطي بارز إذ لا يتطلب إثارة الحماس لرؤية محددة (كما يحاول مسؤولو العلاقات العامة في الاتحاد الأوروبي أن يفعلوا في بعض الأحيان مما قد يؤدي إلى نتائج كارثية في بعض الأحيان لتروا مثالاً على ذلك شاهدوا فيلماً حديث الصنع عن إمرأة أوروبية بيضاء خارقة تخضع عدداً من البرابرة (الآسيويين والسود والعرب) من خلال تحويلهم إلى نجوم الاتحاد الأوروبي الصفراء![1]) بل يتطلب توضيح الخيارات وما يمكن أن تعنيه هذه الخيارات أخلاقياً حتى تقرر الشعوب الأوروبية بينها.

إن المثال الرئيسي على هذا النوع من العمل ـ وسيفاجأ الكثير من القراء هنا ـ هو التدخلات المستمرة التي يقوم بها يورغن هابرماس، وهو ليس أهم مثقفي أوروبا فحسب بل هو أهم مثقف يحاول أن يتصارع مع معنى الاتحاد الأوروبي ومستقبله المحتمل. قد نجد بعض التفاصيل في تحاليل هابرماس ضيقة الأفق ثقافيّاً (أشار بيرّي أندرسون مؤخراً إلى أن هابرماس استخدم في آخر مقالة كتبها عن أوروبا كتاباً كانت ثلاثة أرباع مراجعه لكتّاب ألمان بينما كان الربع المتبقي كتاب أنجلو ـ أمريكان وكأن باقي أوروبا غير موجودة على المستوى الثقافي[2]). من الممكن أن ننتقد هابرماس لعدم تنبهه للتجربة الحية التي يعيشها أوروبيون حقيقيون عبر القارة نفسها وقد يجد العلاجات التي يصفها مثالية بشكل ميئوس منه، ولكن الحقيقة تظل هي أننا نرى هنا مثقفاً يحاول بالفعل أن يتعلم من الخبراء ليبين ما يعتقد ـ سواء أصاب في ذلك أم أخطأ ـ أنها إنجازات وعيوب

---

[1]ـ راجع:

Anya Topolski, "Does it get more transparent than this?" in Open Democracy, 10 March 2012, http://www.opendemocracy.net/anya_topolski/does_it_get_more_transparent_than_this.

[2]ـ راجع:

Perry Anderson, "After the event", in New Left Review 73 (2012), http://www.newleftreview.org/?page=article&view=2938

وأيضـاً إمكانيـات معياريـة للاتحـاد الأوروبي وبذلـك يتقـدم بحوار سـياسي جـدي. يمكننـا إعادة صياغـة الفكـرة بالقـول أنـه قـد يرفـض البعـض محتـوى مـا يتقـدم بـه هابرمـاس ومـع ذلـك يجد النمـوذج الـذي يتقـدم بـه للارتبـاط العاطفـي مـع أوروبـا جذابـاً.

الجمهورية الأوروبية القارئة

لكـن هـذا ليـس النمـوذج الوحيـد إذ يوجـد دور آخـر للمثقفـين الأوروبيـين، وهـو دور كان يعتـبر بديهيّـاً في المـاضي ولكنـه أصبـح مهـدداً بالاختفـاء الآن، فكـما أشـير إليـه مـراراً وتكـراراً اسـتمر وجـود «جمهوريـة ثقافـة مقـروءة أوروبيـة حقيقيـة» حتـى ثلاثينـات القـرن العشريـن حيث كان الكتـاب والفلاسـفة يتلاقـون ويشـاركون أفكارهـم بسـهولة عـبر حـدود الـدول وحيـث كانـوا قادريـن عـلى توضيـح الثقافـات الوطنيـة الأخـرى لقُرَّائهـم بسـهولة وهنـا قـد نتذكـر العلاقـة الاسـتثنائية بـين سـتيفان زفيـغ ورومـان رولان أو أعـمال الباحثـين في مجـال الأدب مثـل إرنسـت روبـرت كورتيـوس. حتـى نكـون دقيقـين فـإن هـذا لم يحـدث إلا عـلى مسـتوى ثقـافي عـال فقـط ولكـن تظـل الحقيقـة أن هـذا التلاقـي حصـل بالفعـل واسـتمر عـلى الأقـل لفـترة وإن كان بأسـلوب مختلـف بعـد نهايـة الحـرب العالميـة الثانيـة حـين لاحـت ضرورة المصالحـة بشـكل كبـير وواضـح في الأفـق، دعنـا هنـا نتذكـر أشـخاصاً مثـل ألفريـد غـروسر وجوزيـف روفـان الذيـن أعـادا تقديـم الفرنسـيين والألمـان إلى بعضهـما البعـض. لم يكـن هـؤلاء مجـرد مدافعـين ومبرريـن للفـروق الثقافيـة أو أصحـاب وسـاطة يختفـون في اللحظـة التـي يتـم فيهـا الوفـاق، بـل في الواقـع لقـد أدى الرجـلان دور المترجمـين الحضاريـين بالإضافـة للوسـاطة السياسـية[1].

ومـاذا عـن الآن؟ قـد يغفـر للمـرء إذا فكـر أنـه كلـما ازداد التكامـل الأوروبي عـلى المسـتويات السياسـية والقانونيـة والاقتصاديـة كلـما زادت المحليـة الضيقـة والنظـرة الداخليـة عنـد كل دولـة مـن دول الاتحـاد الأوروبي عـلى المسـتوى الثقـافي. إن الطـيران المنخفـض الثمـن عـبر أوروبـا الـذي تقدمـه شركـة إيـزي جـت (Easyjet) ومسـابقة الأغـاني الأوروبيـة يوروفيجـين (Eurovision) ليسـوا بدائـل عـن «جمهوريـة الثقافـة المقـروءة» حيـث ينـال المثقفـون شـعوراً حقيقيّـاً عـلى الأقل بحضارتـين أو ثلاثـة مختلفـة في أوروبـا. يوجـد اسـتثناءات بالطبـع فإنـك إن كنـت تقرأ هـذا المقال فقـد دخلـت إلى واحـد مـن أكـبر المواقـع التـي يمكـن للأوروبيـين فيهـا أن يتعلمـوا عـن الجـدل

[1]ـ راجع الشكاوى المشوبة بالتشاؤم الثقافي التي أبداها بيير نورا مؤخراً في مقاله «Man hat sich auseinandergelebt»: http://www.faz.net/aktuell/feuilleton/deutsch_franzoesisches_verhaeltnis_man_hat_sich_auseinandergelebt11651980_.html#Drucken

الدائر في بلاد أخرى (على الأقل عن المثقفين في بلاد يرون فيها جيراناً لهم)[1].

لا يوجد علاج سحري لصنع محيط عام أوروبي حقيقي ولا يمكننا إلا أن نأمل بأن الأفراد قد يكونون أكثر فضولاً ورغبة في رؤية ثمار عملية الترجمة والوساطة. قد يبدو هذا الأمر مملاً للغاية ولكنه في الواقع مهمة عاجلة خاصة عند مفترق الطرق الخطير هذا، إذا أردنا أن نأخذ مثالاً واضحاً فالألمان (و«الشماليون» الآخرون) يحتاجون أن يفهموا تاريخ الحرب الأهلية اليونانية والطرق التي كانت الدولة اليونانية تُهدِّئ بها مجتمعاً مستقطَباً أشد الاستقطاب والطريقة التي ساعدت فيها النقود الأوروبية على خلق طبقة وسطى ساعدت الأحزاب السياسية أن تبقى في السلطة وقلصت من مخاطر تجدد الصراع الاجتماعي (لكن كل هذا ليس عذراً للفساد والدولة الفاشلة على العموم فإن فهمك الشيء لا يعني أنك تعذره) وبالمقابل فقد يكون من المفيد أن يقوم مراقبون من خارج ألمانيا بفهم نوع الإقتصاد الليبرالي ـ الذي حرك لفترة طويلة صنع السياسة في ألمانيا الغربية سابقاً وفي ألمانيا حاليّاً، هذا الشيء الغريب المسمى الأوردوليبراليسموس (Ordoliberalismus) والذي يتصور ممثلوه أنفسهم كالليبراليين الجدد الحقيقيين ـ أي الليبراليون الذين تعلموا من درس الكساد الكبير وبروز الديكتاتوريات في القرن العشرين والذين لم يريدوا أيضاً مساواة الليبرالية بسياسة عدم التدخل، بالنسبة لهؤلاء فالليبراليون الذين يريدون أن يظلوا بعيدين على مجرى الأمور مثل لودفيغ فون ميزيس هم ببساطة ليبراليون قدامى ظلوا ملتزمين بأفكار القرن التاسع عشر عن الأسواق القادرة على تصحيح نفسها بنفسها. من ناحية أخرى أراد الليبراليون الجدد الألمان دولة قوية لا تكون قادرة على تقديم الإطار للأسواق فحسب بل أن تتدخل فيها من أجل التأكد من المنافسة و«الانضباط».

نعيد ونكرر أن فهم أفكار كهذه لا يعني تقبلها (وخصوصاً مع الأوردوليبراليسموس حيث توجد أسباب وجيهة للتشكيك في جوانبه غير الليبرالية أو حتى الاستبدادية)، النقطة الهامة هنا هي أن جدلاً أكثر فائدةً وتقدماً لا يمكن أن يهمل نقاط البداية المختلفة بشكل كبير بين الدول المختلفة عند التفكير بالسياسة (وبالطبع بالاقتصاد أيضاً) وبهذا المعنى على

[1]ـ من الاستثناءات الهامة أيضاً كتاب بيري أندرسون « 2009) « **The New Old World**) وكذلك المسح ممتاز للجدل الثقافي الدائر عن الإتحاد الأوربي في الدول الأوروبية المختلفة قدمته كل من كاليبسو نيكولايديس وجستين لاكروا تحت إسم « 2010) «**European Stories: How National Intellectuals Debate Europe**) (حتى أكون صادقاً تماماً فقد ساهمت بفصل كامل في هذا الكتاب). إن الاتجاه العام ليس مجشعاً بالرغم من ذلك: شاهد مثلاً نهاية موقع **signandsight** في نهاية آذار 2012 وقد كان موقعاً عظيماً في الجدل الأوروبي وتروج الفهم المتبادل بغض النظر عن إسمه المضحك.

هـؤلاء الذيـن سـميتهم «الموضحـين» والشـارحين المتبادلـين للتقاليـد الأمميـة أن يعملـوا سـوية.

لكـن قـد يعـترض البعـض بأنـه ألا يوجـد إلا «التوضيـح» و«الـشرح»؟ ألا يجعـل ذلـك كل الجـدل الأوروبي مجـرد مجمـوع مـا يقولـه الشـارحون الأمميـون إلى بعضهـم البعـض؟ هنـاك المزيـد (وسـوف نناقـش هـذا بعـد قليـل) ولكـن يمكننـا القـول بـأن هاتـين المهمتـين تشـكلان مصـدر همٍّ دائـم وعـلى كل جيـل أن يتعامـل معهـما بطريقـة جديـدة وهـما لا تتعلقان بالاسـتجابة لتحـدٍّ معـين بـل إذا كان لهـما دور فهـما يسـاعدان الجماهـير حتـى تكـون مسـتعدة بشـكل أفضـل للتفاعـل مـع الأزمـات وخاصـة الأزمـات السياسـية.

وهـذا يفتـح الطريـق أمـام نقطتـي الأخـيرة والتـي تتعلـق بالأزمـة السياسـية التـي تقلـق الجميـع: إذا كان الاتحـاد الأوروبي هـو جسـم سـياسي موحـد وإذا عنـت المواطَنـة الأوروبيـة أي شيء فـإذن لا يجـب أن يظـل هنـاك «شـؤون داخليـة» لـدول مسـتقلة وطنيـة لا يحـق لباقـي الأوروبيـين التحـدث عنهـا والحكـم عليهـا. وإذا تعرضـت الديموقراطيـة وسـيادة القانـون في أي دولـة أوروبيـة للخطـر فعـلى كل مثقفـي أوروبـا أن يدقـوا أجـراس الخطـر. المثـال الواضـح عـلى ذلـك هـو هنغاريـا التـي قـد تصبـح أول دولـة عضـو في الإتحـاد الأوروبي تتعـرض لعقوبـات جديـة مـن الإتحـاد الأوروبي لتراجعهـا إلى شـكل مـن الأشـكال غـير الليبراليّـة.

في وجـه الانتقـادات الشـديدة التـي وجههـا البرلمـان الأوروبي ولجنـة الإتحـاد الأوروبي بعـث رئيـس الـوزراء الهنغـاري فيكتـور أوربـان في الأذهـان صـورة مؤامـرة يساريـة عابـرة للدول يقودهـا أنـاس أمثـال دانييـل كوهنـبنديت الـذي يفـترض أنـه لا يحمـل إلا الكراهيـة للقيـم التي يمثلهـا أوربـان وحلفـاؤه: الفخـر الوطنـي، المسـيحية، التصـورات التقليديـة للعائلـة. كـما حـاول أوربـان ـ وهـو رجـل يزدهـر تحـت ظـروف الاسـتقطاب والـصراع ـ أن يبـدأ صراعـاً ثقافيّـاً في بـلاده فقـد حـاول أن يقسـم أوروبـا ككل بـين اليسـار الليـبرالي والـذي يشـمل بعـض الأشـخاص المحافظـين مثـل مانويـل باروسـو (والـذي كان شـيوعيّاً ماويّـاً في المـاضي) مـن ناحيـة ومـن ناحيـة أخـرى مـا أسـماه رئيـس الـوزراء الهنغـاري «أوروبـا الخفيـة» أو «السريـة» الأوروبيـون الذيـن يتفقـون مـع قيـم حزبـه مـن دون أن يجـرؤوا عـلى قـول اسـمه[1].

مـن المغـري أن نـرى أن صراعـاً كهـذا أمـر مرغـوب حتـى لـو كنـا نختلـف مـع كل شيء

[1]ـ راجع:
http://www.faz.net/aktuell/politik/europaeische_union/viktor_orban_im_gespraech_gibt_es_ein_verborgenes_europa_11671291.html

يرمز له أوربان: ألن يكون من ذكاء من تاريخ التكامل الأوروبي أن يثير نزاعاً عابراً للدول يجلب معه أوروبا موحدة بشكل أكبر؟ أليس التسييس (وحتى الاستقطاب) بأمر جيد لأنه يعطي حيوية جديدة لمؤسسات مثل البرلمان الأوروبي ويجعل المثقفين من جميع الجهات ينضمون إلى المعركة بل حتى يجبر المواطن الأوروبي العادي على الانتباه؟

إن هذه الفكرة ديالكتكية زيادة عن اللزوم إذ توجد قضايا ملحة على المحك هنا ولا يمكن تبرير أي معاناة حالية للهنغاريين من خلال الفوائد البعيدة الأمد للقيم السامية للوحدة الأوروبية. قد يكون من النتائج الجانبية للخلاف القائم على «القيم الأوروبية» هو بدء عملية يتم فيها الوصول إلى تعريف أوضح للقيم الأوروبية وفي النهاية زرعها بشكل أعمق ولكن هذا ليس الهدف الأساسي لهذا النزاع بأي شكل من الأشكال. من الواجب على المثقفين الأوروبيين أن يبينوا مثلاً سبب الفهم الأوروبي المشترك لسيادة القانون وكونه ليس مجرد محاولة حزبية أو محلية لتطبيق فكرة عالمية قد يحيد البعض عنها باسم «التنوع» أو «التعددية».

لقد أصبحت هذه المعركة الفكرية على وجه التحديد أصعب بسبب حقيقة أنه وبعد فشل الاتفاقية الدستورية بدأت النخب السياسية الأوروبية في ترديد مقولة أن الغرض من الإتحاد الأوروبي كان من الأصل، التعددية وسعي الدول في طرقها المستقلة نحو الديموقراطية والسعادة الوطنية أي بكلمات أخرى استخدام منطق لا يخلو من الإهمال ويهدف إلى تسكين المخاوف من قيام «دولة خارقة أوروبية» ولكنه أيضاً منطق يعطي شيكاً على بياض لأشخاص مثل أوربان الذي دافع عن موقفه بالقول أن دستوره الجديد متجذر في تقاليد بلاده والتحديات الحالية التي تواجهها.

التنوع والتعددية ليسا قيماً كما هو الحال في الحرية والديموقراطية إذ إنّ السؤال الذي يطرح في حالتيهما هو: «التنوع في ماذا؟»، على المثقفين الأوروبيين أن يدافعوا عن الحرية والديموقراطية إذا اضطروا لذلك وفي جميع الأوقات الأخرى عليهم أن يستمروا في مهام التوضيح والشرح وأن يستمدوا من جملة إميل زولا ـ الرجل الذي روج لمصطلح «المثقف» في أواخر القرن التاسع عشر: «دعونا نعمل!» .